

الزبير بن العوام

أحمد شوحان

مكتبة التراث



١ ـ أبو بكر الصديق

٢ ـ عمر بن الخطاب

٣ ـ عثمان بن عفان

٤ ـ علي بن أبي طالب

٥ ـ سعيد بن زيد

٦ ـ سعد بن أبي وقاص

٧ ـ الزبير بن العوام

٨ ـ أبو عبيدة بن الجراح

٩ ـ عبد الرحمن بن عوف

١٠ ـ طلحة بن عبيد الله

الزبير بن العوّام

* ـ « لِكُلِّ نَبِيّ حَوَارِيٌّ ، وَإِنَّ حَوَارِيَّ الزُّبَيْرُ » .

« مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللّه »



إسلامه..

جهاده..

أبو الشهداء..

في أرض المعركة..

حواري رسول الله..

تاجر صدوق..

أيام الجمل..

استشهاد الزبير..

بطل من أبطال الإسلام ، وفارس من فرسانه ، لا نكاد نسمع اسمه إلا ويتبادر إلى ذهننا اسم أخيه « طلحة بن عبيد الله » ، ذلك الفارس الشهم الجسور ، والبطل الكبير .

آخى رسول الله ﷺ بينهما ، وكانت صفات كل واحد منهما تنطبق على الآخر ، لقد كان لهما شرف الأسبقية في الإسلام ، وعاشا عيشة الترف والرخاء ، وامتازا بالشجاعة والإقدام ، وآخى بينهما رسول الله ﷺ ، وشهد لهما بالجنة ، وقتلا ظلماً أيام الفتنة .

ذلك البطل هو الزبير بن العوام .

وهو ابن صفية بنت عبد المطلب عمة رسول الله ﷺ ، التي كانت تضرب الزبير وهو صغير ضرباً شديداً وهو يتيم ، فقيل لها ذات يوم : قتلته ! ! ! خلعت فؤاده ! ! !أهلكت هذا الغلام ! ! !

قالت : إنما أضربه كي يلب ، ويجر الجيش ذا الجلب[1] .

وشاء الله للزبير أن يكون شجاعاً منذ صغره ، فقد كسر يد أحد الغلمان ، فجيء به إلى عمته صفية ، فراحت تسائله عن الزبير ، وأنه الشجاع الذي لا تلين له قناة ، وأنه كالصقر الأجدل .

إسلامه

أسلم الزبير صغيراً ، لقد دعاه أبو بكر الصديق رضي الله عنه فأجاب

(١) تريد بهذا الضرب تعليمه الشجاعة والقيادة .

وأسلم على يده ، فكان بإسلامه رابع رجل دخل الإسلام أو خامس . كان من السابقين الأولين إلى الإسلام ، وقد نال بهذه الأسبقية الشرف والمجد لما لها من مكانة عند الصحابة وغيرهم .

وكان الزبير أحد الذين كانوا يترددون إلى دار الأرقم ، لتلقي مبادىء الإسلام ، عن رسول الله ﷺ سراً ، وكان عمره خمس عشرة سنة ، فكان مخلصاً صادقاً جريئاً . ومن شب على هذا الإيمان الراسخ ، وتلك الشجاعة ، يدخل هذا الدين فيخلص له ، ويعمل بإخلاص من أجله ، لابد أن تلاحقه الجاهلية بعيونها وأيديها وعذابها ، فنال الزبير حظه من العذاب والهوان على أيدي المشركين الذين أذاقوا المسلمين ألواناً شتى من التنكيل والتعذيب ، ولقد كان هم قريش أن تقضي على الدعوة ، بعدائها لرجالها ومطاردتهم ، رغم أن الزبير رضي الله عنه كان من ذوي الشرف الرفيع والمكانة بين قومه .

كان عمه يلفه بحصير ، ويدخن عليه النار ليخنقه ويزهق روحه ، ويناديه أثناء ذلك التعذيب : يا زبير ؛ أكفر برب محمد ، أدرأ عنك هذا العذاب ! !

فيجيب الزبير عمه بكلمات ملؤها اليقين والإيمان : لا والله ؛ لا أعود للكفر أبداً .

وحينما هاجر إلى الحبشة عاد ومعه « العنزة » وهي عصا كانت تحمل بين يدي رسول الله ﷺ في الأعياد[1] .

جهاده

كان الزبير فارساً مقداماً ، شهماً ، فمنذ طفولته كان حريصاً على رفع كلمة الله وإعلائها ، لقد أشاع المشركون يوم كان المسلمون يستخفون بدينهم في دار الأرقم ، أن محمداً ﷺ قد قتل ، وانتشرت هذه الإشاعة في مكة المكرمة ، وسمع الزبير بها ، فاستل سيفه ، وسار في شوارع مكة غاضباً

(١) العنزة : عصا أقصر من الرمح لها سنان ، وقيل هي الحربة القصيرة .

يستقصي صحة الخبر ، فإن صح فسيفلق هام مشركي قريش بسيفه ، وإن لم يثبت ذلك عاد لمنزله ، وإذا برسول الله ﷺ يلتقي به في أعلى مكة ويسأله عن سبب خروجه ، فيخبره الزبير ، ويطمئنه الرسول ﷺ ويدعو له ولسيفه بالغلب ، حتى أن الصحابة والمؤرخين قالوا : إن الزبير أول من استل سيفه في الإسلام .

وهذه مفخرة المفاخر بالنسبة للزبير ، وأمنية كل مسلم في تلك الفترة . وقد هاجر الزبير إلى الحبشة « الهجرة الأولى » وعاد بعد ذلك لينخرط في جيش الرسول القائد ، الذي نظمه تنظيماً دقيقاً ، وغرس فيه الإيمان والعقيدة ، فإذا بالزبير يشهد جميع غزوات رسول الله ﷺ لا يتخلف عن واحدة منها .

ونتيجة لهذا الجهاد المستمر ، كان جسده الطاهر قد زينته ضربات السيوف ، أو طعنات الرماح ، ومن رأى هذه الأوسمة التي تناثرت على مقدمته شهد له بالشجاعة والبطولة ، كما شهد له رسول الله ﷺ بالجنة .

قال أحد مرافقيه : صحبت الزبير في بعض أسفاره ، ورأيت جسده ، فرأيته مجذعاً بالسيوف ، وإن في صدره لأمثال العيون الغائرة من الطعن والرمي .

فقلت له : والله لقد شهدت بجسمك ما لم أره بأحد قط .

فقال : أما والله ما منها جراحة ، إلا مع رسول الله ، وفي سبيل الله .

إنها الشجاعة الخارقة ، والبطولة النادرة ، والإخلاص الكامل . والتفاني لإعلاء راية الله عالية .

وفي معركة اليرموك ، تلك الملحمة الإسلامية الكبرى التي انتصر فيها المسلمون على الروم انتصارهم الساحق ، رغم تفوق الروم في الرجال والسلاح ، فقد أدبهم المسلمون وردعوهم ، ولقنوهم درساً مراً إلى الأبد . وهزيمة لم تعقبها جولة مثلها فولوا أدبارهم يغادرون البلاد العربية إلى بلاد الروم ، لأن الغزاة الظلمة لابد أن يتقهقروا ويذلوا ويهانوا ، لأن الرجال الأفذاذ الذين

جاؤوا إليهم ليطردوهم كانوا لا يحسبون للموت حساباً ويحبون الموت الذي يهبهم الحياة الأبدية والنعيم المقيم في جنات الله .

جاء الزبير في معركة اليرموك يحمل سيفه ويفلق هام الروم ، ويشق صفوفهم ، لقد شاهد قبل قليل بعض المسلمين يتقهقرون أمام جبال الروم الزاحفة ، فصاح بصوت انطلق من سويداء قلبه : « الله أكبر » واخترق الصفوف يقتل عن يمينه وشماله ، وبعد حين ينسل من بين جموعهم ببراعة ومهارة ، وقد قتل منهم وجرح كثيراً .

وكان أصحابه يتحدثون عنه فيقولون : إنه ما ولي إمارة قط ، ولا جباية ، ولا خراجاً ، ولا شيئاً ، إلا الغزو في سبيل الله .

فماذا يريد الزبير أفضل من هذه الشهادة الرفيعة في الدنيا ، ليدخل بموجبها يوم القيامة جنات تجري من تحتها الأنهار .

أبو الشهداء

قضى الزبير حياته في جهاد مستمر ، وكان رضي الله عنه يحب الشهادة في سبيل الله ، وله بها ولع شديد ، ومكانة مرموقة ، يتطلع إليها طوال حياته .

وسمع الزبير أن طلحة بن عبيد الله يسمي أولاده بأسماء الأنبياء ، فقال : إن طلحة بن عبيد الله يسمي أولاده بأسماء الأنبياء ، وقد علم ألاَّ نبي بعد محمد ، وإني لأسمي بَنّي بأسماء الشهداء لعلهم يستشهدون .

فراح يسمي أولاده بأسماء شهداء المسلمين .

سمى « عبد الله » تيمناً بالصحابي الشهيد « عبد الله بن الزبير » .

وسمى « المنذر » تيمناً بالصحابي الشهيد « المنذر بن عمرو » .

وسمى « عروة » تيمناً بالصحابي الشهيد « عروة بن عمرو » .

وسمى « جعفراً » تيمناً بالصحابي الشهيد « جعفر بن أبي طالب » .

وسمى « حمزة » تيمناً بالصحابي الشهيد « حمزة بن عبد المطلب » .

وسمى « مصعباً » تيمناً بالصحابي الشهيد « مصعب بن عمير » .

وسمى « خالداً » تيمناً بالصحابي الشهيد « خالد بن سعد » .

وهكذا راح الفارس الشهيد يسمي أولاده بأسماء الشهداء لعلمه التام ما لهذه الكلمة « الشهيد » من مكانة مرموقة ، في الدنيا فخر وشرف ، وفي الآخرة جنات وشفاعة لأهله وذويه .

في أرض المعركة

كان الزبير في معركة « بدر » يلف رأسه بعمامة صفراء ، فأنزل الله الملائكة مدداً للمسلمين وعليهم عمائم صفر . ولم يكن لدى المسلمين سوى فرسين أحدهما عليه الزبير . وفي معركة « أحد » جعله رسول الله ﷺ أميراً على الخيل .

وكان الزبير يصول ويجول ، ويدافع عن رسول الله ﷺ بعد أن تغيرت موازين المعركة ، وانقلب النصر الذي حققه المسلمون إلى هزيمة وخسران . وقد خسر المسلمون في هذه المعركة عدداً من أبطالهم ، وقام المشركون بالتمثيل بجثث الشهداء . لقد حمل الرسول ﷺ سيفه وقال مشجعاً أصحابه : من يأخذ هذا السيف بحقه ؟ فأسرع الزبير ليأخذه ، فأعرض عنه ، وقال ثانية : من يأخذ هذا السيف بحقه ؟ فقام الزبير ثانية بتلهف لأخذ السيف . وقال : أنا يا رسول الله . فأعرض عنه رسول الله ﷺ ، وقال الثالثة ، فأخذه أبو دجانة ففلق به هام المشركين . وحينما حقق المسلمون النصر في أُحُد وولت قريش هاربة تترك أموالها وسلاحها في المعركة ، يقول الزبير : والله لقد رأيتني أنظر إلى خدم هند بنت عتبة وصواحبها مشمرات هوارب .

وفي غزوة « خيبر » خرج أحد اليهود واسمه « ياسر » وهو يرتجز يطلب مبارزاً :

قد علمت خيبر أني ياسر شاكي السلاح بطل مغاور
إذا الليوث أقبلت تبادر وأحجمت عن صولتي المغاور
إن حماي فيه موت حاضر

فخرج إليه الزبير بن العوام رضي الله عنه ، وشاهدته أمه صفية فجاءت إلى رسول الله ﷺ تقول : أيقتل ابني يا رسول الله ! ! !

فقال لها ﷺ : بل ابنك يقتله إن شاء الله .

وجاء الزبير يرعد ويرتجز :

قد علمت خيبر أني زبَّار[1] قرم لقوم غير نكس فرار
ابن حماة المجد وابن الأخيار ياسر لا يغررك جمع الكفار
فجمعهم مثل السراب الجرار

فلما التقيا ضربه الزبير فقتله .

وحينما تقدم الرسول ﷺ بجيشه لفتح مكة أعطى الزبير راية ، وجعله أميراً على خيل المهاجرين والأنصار ، وأمره أن يغرز رايته بأعلى مكة .

وفي معركة « اليرموك » كان الزبير قائداً لأحد كراديسها .

وجعله عمر بن الخطاب قائداً لميسرة الجيش الذي انطلق إلى القادسية .

لقد ثبت يوم أحد ، وبايع رسول الله ﷺ على الموت . ووقف على جثة خاله حمزة بن عبد المطلب ، وأسنانه تضغط على بعضها حقداً وضغينة على المشركين ، ويده تشد على مقبض السيف الذي رواه من دم المشركين ، ونفسه تحدثه وكأنها تقول : لآخذن الثأر من هؤلاء المشركين ، ولأرينهم أن القوة

(١) زبَّار : من الزبر وهو القوة والمنعة .

لله جميعاً .

وحينما حاصر المسلمون « بني قريظة » ولم يستسلم هؤلاء للمسلمين ، أرسله رسول الله ﷺ مع علي بن أبي طالب ، فوقف أمام حصونهم المنيعة وقال :

« والله لنذوقن ما ذاق الحمزة ، أو لنفتحن عليهم حصنهم » .

وببطولة خارقة استطاع الفارسان علي والزبير أن يصعدا ذلك الحصن المنيع ، وأن يجاولا ويصاولا من ابتدرهما ، حتى استطاعا أن يفتحا أبواب الحصن للمسلمين .

ويوم « حنين » أبصر الزبير مالك بن عوف بعد انهزامهم في وادي حنين واقفاً بين عدد من أصحابه المنهزمين ، فاقتحم الزبير ذلك التجمع بمفرده ، وأبعدهم عن ذلك المكمن الذي وقفوا فيه يتربصون الدوائر بالمسلمين .

حواريّ رسول الله

قال رسول الله ﷺ يباهي بالزبير : « لكل نبي حواري ، وإن حواريَّ الزبير » ولا يمكن أن يطلق رسول الله ﷺ هذه الصفة لغير هذا الرجل الصنديد ، الذي أخلص للإسلام منذ أسلم ، وعمل بهمة الرجال الأفذاذ منذ نعومة أظفاره ، حتى أن حسان بن ثابت قال فيه :

أقام على عهد النبي وهديه ... حواريه ، والقول بالفعل يعدل
أقام على منهاجه وطريقه ... يوالي ولي الحق ، والحق أعدل
هو الفارس المشهور والبطل الذي ... يصول ، إذا ما كان يوم محجل
له من رسول الله قربى قريبة ... ومن نصرة الإسلام مجد مؤثل
فكم كربة ذب الزبير بسيفه ... عن المصطفى ، والله يعطي ويجزل

إنها أبيات في غاية الصدق .

ذلك الرجل الصادق هو الزبير بن العوام ، الذي كان عظيم الشمائل ، كريم الخصال الحميدة ، جميل المحيا ، جواداً ، شجاعاً ، غنياً يبدد أمواله في سبيل الله .

تاجر صدوق

منذ بدايات حياته ، عمل بالتجارة ، فجمع الأموال الكثيرة كأقرانه من كبار التجار ، ولكن الزبير ، قلما نجد له قريناً بين التجار .

كان يربح كثيراً ، فكان ينفق كثيراً .

كانت تجارته واسعة ، وكانت يده البيضاء أوسع .

كانت تلك التجارة الرابحة نتيجة التوكل على الله ، والإعتماد عليه ، فقد كان يوصي أولاده بالتوكل على الله والاعتماد عليه ، قال لولده عبد الله :

إذا أعجزك دين ، فاستعن بمولاي .

وسأله عبد الله : أي مولى تعني ؟

قال الزبير : الله ... نعم المولى ونعم النصير .

فكان عبد الله بن الزبير يقول : فوالله ما وقعت في كربة من دينه إلا قلت : يا مولى الزبير اقض دينه ، فيقضيه .

هكذا كان الأب ، وهكذا كان الولد ، ذرية صالحة بعضها من بعض .

أيام الجمل

حرب الجمل ، وحرب صفين ، من المآسي في تاريخنا الإسلامي المجيد ، جمعت السيوف والحراب التي كانت موجهة إلى الأعداء في ميدان واحد ، واقتتل بها الإخوة الأشقاء الذين كانوا بالأمس يقاتلون الكفرة والمشركين وينشرون رسالة الإسلام . كانت حرباً أهلية ضارية ، الرابح فيها خاسر ، والخاسر فيها نادم عن نتائجها المؤلمة ، عملت الأصابع الخفية فيها في الظلام ،

ولعب أعداء المسلمين دوراً كبيراً في إيقاد نار الفتنة والإقتتال ، وإثارة نارها كلما خمدت . لقد قال علي رضي الله عنه حين شاهد الزبير في جيش عائشة : يا زبير ... نشدتك الله ، أتذكر يوم قربك رسول الله ﷺ ونحن بمكان كذا وكذا ، فقال لك : يا زبير ؛ ألا تحب علياً ؟ ؟ فقلت : ألا أحب ابن خالي ، وابن عمي ، ومن هو على ديني ؟ ؟

فقال لك : يا زبير ، أما والله لتقاتلنه وأنت له أظلم ! ! !

قال الزبير رضي الله عنه : نعم أذكر الآن . وكنت قد نسيته ، والله لا أقاتلك ، وأقلع الزبير عن هذه الحرب الطاحنة ، ولوى زمام فرسه وعاد قافلاً إلى المدينة .

استشهاد الزبير

لقد عاد الزبير من حرب الجمل نادماً ، فلحق به عمرو بن جرموز فقتله في وادي السباع بين البصرة ومكة وهو يصلي . وقطع رأسه وحمله ، وأخذ سيفه وعاد إلى علي رضي الله عنه ، فلما شاهد علي رضي الله عنه سيف الزبير قال : سيف والله طال ما جلا به عن وجه رسول الله ﷺ الكُرَبَ[1] .

وجاء ابن جرموز يستأذن على الإمام علي فاستجفاه وقال : بشر قاتل ابن صفية بالنار . وراح علي رضي الله عنه ومن معه يبكون على الزبير . وأراد ابن جرموز لعنه الله أن يبرر جريمته فأراد أن يجعل الزبير من أهل البلاء والفتنة وقال : أما أصحاب البلاء ... فقاطعه علي رضي الله عنه وقال له رادعاً : بفيك التراب ، إني لأرجو أن أكون أنا وطلحة والزبير من الذين قال الله في حقهم : ﴿ وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غِلٍّ إخواناً عَلى سُرُرٍ مُتَقَابِلِيْنَ ﴾[2] .

(١) قال الذهبي في سير أعلام النبلاء ٥٢/١ : قال عبد الملك بن مروان ، حين قتل ابن الزبير : يا عروة ! ! ! هل تعرف سيف الزبير ؟ قلت : نعم ! قال : فما فيه ؟ قلت : فلّةٌ فلَّها يوم بدر ، فاستله فرآها فيه ، فقال : بهن فُلول من قِراع الكتائب .

(٢) الآية ٤٧ من سورة الحجر .

وقالت عاتكة بنت زيد زوجة الزبير بعد مقتله :

غدر ابن جرموز بفارس بهمة ... يوم اللقاء وكان غير معرد
يا عمرو لو نبهته لوجدته ... لا طائشاً رعش الجنان ولا اليد
شلت يمينك إن قتلت لمسلماً ... حلت عليك عقوبة المتعمد
ثكلتك أمك هل ظفرت بمثله ... فيما مضى مما تروح وتغتدي(١)

حتى أن أهل المدينة كانوا يقولون : من أراد الشهادة فليتزوج عاتكة بنت زيد ، كانت عند عبد الله بن أبي بكر فقتل عنها ، ثم كانت عند عمر بن الخطاب فقتل عنها ، ثم كانت عند الزبير بن العوام فقتل عنها .

وقال جرير بن الخطفي :

إن الرزية من تضمن قبره ... وادي السباع لكل جنب مصرع
لما أتى خبر الزبير تواضعت ... سور المدينة والجبال تخشع
وبكى الزبير بناته في مأتم ... ماذا يرد بكاء من لا يسمع

وهكذا مات الزبير شهيداً .(٢)

مات المبشر بالجنة ، رضي الله عنه وأرضاها .

* * *

---

(١) المعرد : الهارب . الطائش : من دهش فخاف .

(٢) المراجع التي رجعنا لها : تاريخ الطبري ، طبقات ابن سعد ، رجال حول الرسول لخالد محمد خالد . سير أعلام النبلاء للذهبي . حياة الصحابة للكاندهلوي . والأعلام للزركلي .